رسائل حاج

٢ ـ من ربوع الغرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

وشعرت وأنا أجتاز دهاليز الأزهر وأستقبل لأول مرة أروقته وحلقات دروسه بنوع من الرهبة والخشوع والتسليم. فهذا المعهد العظيم موئل الاسلام ومعقله، ومنبع الثقافة الدينية، وحامي حمى اللغة العربية. كان من أسمى أمانى أن أندمج في سلك طلابه. وكم كنت في شوق لاهف إلى أن أنهل من ينبوعه الفياض روح الاسلام الحق، وأضيء شمعة معرفتي الخافتة بحيث تتحول إلى شعلة وقادة، وإلى حماسة فائقة داخل جوانحي، وأتعرف إلى شيوخه الذين يقودون العالم الاسلامي بآرائهم وأفكارهم، كما كنت على يقين وثقة أنني بمعاونة هؤلاء العلماء الفطاحل سأمضي في ترجمتي للقرآن الكريم إلى اللغة المجرية بحيث أجعلها في متناول آلاف المسلمين من مواطني

ومع أن هذه الترجمة كانت عملاً شاقاً مضنياً، فاني كنت أحس من أعماق روحي أنها فرض واجب على كمسلم مخلص يريد أن يعلي منار الاسلام ويطمح في أن يضيف لبنة صغيرة إلى صرحه العظيم

وخيل إليّ وأنا في نشوة روحية عميقة أنني بدأت أظفر ببغيتي وأجزى خير الجزاء عن تلك الليالي الطويلة التي لم أذق فيها طعم الكرى، بل أمضيتها منكباً على دراسة الاسلام وتفهم قواعده وأصوله، وأن كل ماحاق بي من مصاعب سيتبدد، وفشلي سيتحول إلى فوز عظيم وانتصار رائع بمعاونة شيوخ الأزهر ومدهم يد المساعدة إلى عملي المتواضع

ولكنني رأيت والأسف يملأ جوانحي أن آمالي تنهار دفعة واحدة بحيث أصبحت عاجزاً عن خدمة الغرض الأسمى الذي خصصت حياتي له. علمت بأن هناك وشاة أوعزوا الشيخ الظواهري بأنني دخيل أرمي إلى الوقوف على أم الاسلام وإذاعتها في البيئات العلمية في أوربا! وعلى الرغم الظنون والشبهات السيئة التي حامت حولي بذلت جهداً لمقاومتها؛ وكان رائدي في تلك المقاومة أن الحق على الدوا جانبي، وقد كانت سيرة المرحوم الامام الشيخ محمد ا وما لقيه من خصومة صماء خفية، وانتصاره على خصومه أ مشجع لي في الثبات أمام حجة خصومي. وقلت لنفسي: أنت أيها المصلح العظيم لترى كيف ابتعد الأزهر عن مباد العالية، وتجاوز عن رسالتك الرفيعة التي سموت بها الأغراض الوضيعة والمطامع الدينوية والمنافع المادية

وعلى الرغم من جهادي الضعيف في مقاومة خصو ما كنت لأستطيع أن أبرهن لفضيلة الشيخ الظواهري اخلاصي وحبي للدين الحنيف، وأني لست دخيلا، ول رجل يؤمن من أعماق روحه بالرسالة المحمدية النبيلة، وأريد أحصل على معاونة رجال الأزهر للوقوف على تعاليم الاسلا مع علمي بأن هذه الشريعة السمحاء ليس بها أسرار يمكن اذا في البيئات العلمية، لأنها ديانة مؤسسة على ثقافة ثابتة مكش للعالم لا تميز فيها بين الأجناس والألوان. وليس الأزهر س الجامعة الاسلامية الحق التي تضيء شعلة الحق، فلا أسرار جوانبها يمكن اخفاؤها عن رجل أجنبي مهما كانت صفته. يعاقب الله كل مسلم يرمي أخاه بالشرك والكفر والتشكك عقيدته المقدسة؟ ألا يعاقب أيضاً أولئك الذين لا يقومون بواج الدعاية والارشاد للاسلام، والذين يخفون أسراراً في قلوبهم يشهد الله أنني لا أرى من وراء ذلك أن أوجه التهم جزاف لأني لا أملك هذا الحق، ولكنها صرخة ضعيفة أردت أن أنف بها عن صدري

إن الأزهر بحسب نظامه الحالي لا يستطيع أن يؤدي رس الاسلام كما يجب. فالنظام الحديث الذي أدخل عليه، والحيلولة دو اجتماع الطلاب في حلقات الدرس كما كانوا قبلا حول شيوخهم مسخ الأزهر وشوهه، وأفسد ما كان قد بقي له من جمال وجلا وحرمة، وأفقده سيطرته الدينية والاجتماعية في العالم الاسلامي

ك السيطرة التي ظل متمتعاً بها قروناً عدة . ويلوح لي ن البرامج الحديثة لم تقدم الأزهر خطوة واحدة ، لأن شرفين على تنفيذها جعلوا هدفهم الأسمى فتح أبواب العمل في جوه الطلاب ، وتمكينهم من احتلال الوظائف المدنية دون أن لكروا في تحميلهم ثقافة الاسلام على وجهها الصحيح وارشاد لمسلمين الى الخير وتفقيههم ، ودعوة غير المسلمين الى الدخول في دين لله كما نص على ذلك القرآن الكريم . يجب إذن أن يترك الأزهر يكون جامعة الاسلام الحق ، وأن يعد طلابه لحمل رسالة الحق ، تهيئتهم للوعظ والارشاد ؛ أما فتح أبواب العمل واحتلال لوظائف المدنية فأشياء ثانوية قد تصرف الأزهر عن الغاية التي نشىء من أجلها

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من العلماء الجهابذة في هذا لمعهد الاسلامي العظيم فان الضغط أطفأ في قلوبهم روح المعرفة والتعطش اليها . على أن الاسلام في عرفي يحتاج إلى حرية كاملة في البحث والتنقيب والفكر . ولقد ولد الاسلام في مهد الحريات فيجب أن يظل كذلك ، لأنه يحث على حب الحقائق والصدق والتغلغل في أعماق المعرفة . وتقدم الأزهر لا يتم بتشييد العمارات المهيبة العظيمة ، وإقامة عمد من الرخام والمرمر ، وصنع مقاعد الدراسة من الاخشاب الثمينة ، وانما يتم بالتمسك بالعروة الوثقى ، وإزالة الصدأ الذي ران على القلوب من التمسك ببعض التقاليد والعقائد الزيفة ، وفي الاجماع على توحيد كلمة الحق ووضع الأنظمة الالهية في المكان اللائق بها . ألم يقل الله عز وجل : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » أو كما قال الرسول الكريم « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا »

* * *

ولما يئست من معاونة رجال الأزهر قر في عزمي أن أقوم بدراستي وحدي مستعيناً بعلم خاص تكرم بتضحية جزء من وقته لتعليمي ، كما ألفيت مساعدة عظيمة من بعض أصدقائي بالقاهرة ، كالأستاذ محمود تيمور الذي يجمع بين ظرف الشباب وطهارة الشيوخ ، والشاب النابه محمد أمين حسونه الذي عرفني إلى طائفة من أدباء مصر وصحفيها ، وأعارني مكتبته طيلة إقامتي في مصر ، والباحث محمد عبد الله عنان الذي يمد حجة في التاريخ الاسلامي ، والشيخ الوقور عبد الوهاب النجار الذي له أتباع وتلاميذ منتشرون في أنحاء الأرض ، وقد كان سبباً في تعرفي بكثير من اخواني المسلمين ، وكانت كتب توصيته بمثابة مفتاح يفتح أمامي كل باب

* * *

وفي أواخر فبراير زودني الأستاذ النجار بكتب توصية بمناسبة عزمي على أداء فريضة الحج ؛ وكان له الفضل الأكبر في تقديمي إلى « بنك مصر » ، ذلك الصرح المالي العظيم الذي يتناول من جملة مشروعاته الاقتصادية تنظيم سبل السفر إلى الأقطار الاسلامية المقدسة . ومما يذكر مع الأسف العميق أن أعمال الحج كانت تقوم بها قبل ذلك شركات ملاحة أوربية لا علم لها بما تتطلبه حاجات الحجاج المسلمين ، فكانت بواخرها تحمل المشروبات الروحية ، وتقدم إلى الركاب الطعام الأوربي ، ولا تكترث بأن تهيئ لهم الماء الكافي للوضوء ولا إقامة مصلى يؤدون فيه الفرائض الشرعية

أما « بنك مصر » فقد نظم للحج باخرتين كبيرتين تعدان من أكبر البواخر ، وزودهما بكل ما يحتاج اليه الحجاج من وسائل الراحة والمأكل بحيث يشعر المسافر أنه لم يفارق بلاده . وقد كانت بغيتي أن أستقل إحدى هاتين الباخرتين ، لأنني عددت نفسي مصريا بعد أن شربت من ماء النيل ، ولكني لم أتمكن وا أسفاه من نيل بغيتي ، فان قانون شركة ملاحة مصر يمنع من نقل الحجاج الأجانب على هذه البواخر ، وعلى الرغم من المجهود الذي قمت به وتوسط الهلباوي بك لم أوفق ، واضطررت إلى السفر على إحدى بواخر الشركة الخديوية

وقامت بنا الباخرة باسم الله مجراها تشق برزخ السويس ، فرحت أفكر في تاريخ ذلك المضيق الذي كان سبباً في فصل افريقيا عن آسيا ، بل كان فاصلا بين حقبتين من أحقاب التاريخ ؛ ومع أنه قرب مصر من أوربا فقد جعل لمصر مركزا سياسيا ممتازاً بحيث أصبحت جزءا من أوربا . وبينما أنا غارق في غمار تلك الأفكار إذ اقترب مني فريق من الحجاج وبدأ التعارف بيننا بسرعة . كان بينهم طبيب هندي تصحبه كريمته ، ولكن لسوء الحظ لم يكن هذا الطبيب يعرف من اللغة العربية حرفا واحدا ، فاضطررنا أثناء السفر إلى التحدث باللغة الانجليزية . وفي

ذات يوم نظر إلى نسخة من القرآن الكريم فى يدى ، وهى الطبعة التى تولتها الطبعة الأميرية ، فأعجب بها أيما إعجاب ، وطلب إلىّ أن أبتاع لحسابه ألف نسخة من هذه الطبعة ليبعث بها إلى الهند إذ لا توجد هناك مصاحف جميلة من هذا النوع

وكان بالباخرة أيضاً حاج مراكشى ، يشغل وظيفة قاض فى فاس ، وكان صبوح الوجه ، وقورا ، أميل إلى التزام الصمت ، لكنه ما كاد يسمعنى أتحدث بالعربية مع أحد الحجاج الأتراك حتى أقبل الينا واشترك فى الحديث . ولشد ما أعجبت بتبحر الرجل فى العلوم الاسلامية والفقه ، كما أن لباسه الشرقى الفضفاض كان يخلع عليه طابعاً من الرزانة والوقار ؛ أما صاحبنا التركى فكان أحد ضباط الشرطة فى دمشق ، وبعد اعتزاله الخدمة آثر أن يبقى فى سورية حيث تعلم اللغة العربية ؛ وكان طيلة السفر يشكو من الشكوى من الأنظمة الحديثة فى تركيا وبالأخص ترجمة القرآن وتشويه هذه الترجمة بحيث لا تؤدى المعانى المقصودة ، ويظهر سخطه وتبرمه بالفازى الذى يحول دائما بين المسلمين الأتراك وبين أداء فريضة الحج ، ويرهق كل من أراد الحج بالضرائب الفادحة

من ذلك ترى أننا كنا على ظهر الباخرة من بلاد متباينة ، ولكن تجمعنا جامعة الاسلام ، وتؤلف بين قلوبنا وتجعلنا نعيش كأفراد أسرة واحدة . فلما اقترب موعد العشاء أخذنا أماكننا على المائدة ، وكان يخيل الى كل من يرانا أننا فى برج بابل ، فكل منا يتكلم بلغة لا يفهمها الآخر ، بيد أننا سوف نصل بعد بضعة أيام إلى جدة ونطأ أقدامنا الأرض المقدسة فنخلع عن أنفسنا تلك الملابس التى تفرق بيننا لنستبدل بها لباس الاحرام الفضفاض بحيث لا يصبح أى فارق بيننا بل نكون سواسية فى حضرة رب البيت الكريم

وبعد انتهاء طعام العشاء بقليل صفرت الباخرة صفيراً عالياً فغادرنا المائدة وتهيأنا للوضوء ، ثم صلى كل منا ركعتين قرأ فيهما سورة الاخلاص وقل يا أيها الكافرون

وكان البحر هادئاً والهواء ندياً والنجوم تتألق فى القبة الزرقاء ، وراحت الباخرة التى كانت تحمل على ظهرها أكثر من ٧٠٠ حاج تلقى مراسيها بين هتاف الحجاج ودعواتهم الحارة

وهكذا ظل الحجاج فى هرج ومرج ، فكنت ترى البعض يهتف بقوله : لبيك اللهم لبيك ، والبعض الآخر مستغرقا فى صلاته وآخرين صامتين لا يبدون حراكا ، شاخصين بأبصارهم فى ذهول نحو الأرض المقدسة التى خرج منها سيد الخلق ورسول رب العالمين

وما كنت بأقل من هؤلاء الحجاج شعوراً بالغبطة والابتهاج ولزمت مكانى خاشعاً راكعاً لا تقوى قدماى على الحركة ، ودقات قلبى تثب فى قوة وعنف بينما يردد لسانى فى خفوت : لبيك اللهم لبيك . ثم انهمرت الدموع من مآقى ولم أملك أن أمنع نفسى من الاسترسال فى البكاء . أجل ! أدركت الحق الصحيح ولمست عظمة هذا الدين الحنيف ، وعبثاً حاولت النوم فى تلك الليلة بل شرد عقلى واتجهت بتفكيرى إلى أعمال الخلفاء ، رضوان الله عليهم ، وإلى رعايتهم الأمم الاسلامية ، وتوزيع أسباب العدالة عليهم طبقاً لأصول الشريعة السمحاء

(يتبع) عبد الكريم جرمانوس

اعلان مناقصة

تفتيش مبانى بحرى القاهرة

الكائن بالدور العلوى بعمارة وزارة المواصلات

يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٦ الساعة ١٢ ظهراً

مشروع إقامة عزبة للسجانة بليمان أبى زعبل

ويمكن للمقاولين الدخول فى هذه الأعمال كلها والحصول على المستندات من التفتيش المذكور نظير مبلغ ١ جنيه و ٦٦٠ مليما « فقط جنيه مصرى واحد وستمائة وستة وستون مليما لا غير » كما يمكن للمقاولين الاخصائيين الدخول فى جزء منها حسب اختصاصهم . وتباع مستندات الاعمال الاعتيادية بمبلغ ١ جنيه و ٢٣٥ مليما « فقط جنيه مصرى واحد ومائتين وخمسة وثلاثون مليما لا غير » ، والأعمال الصحية بمبلغ ٧٧٥ مليما « فقط سبعمائة وخمسة وسبعون مليما لا غير » بخلاف أجرة البريد وقدرها ٣٠ مليما « فقط ثلاثون مليما لا غير »

وللمصلحة حق التجزئة